فتح الأندلس في ذاكرة النصّ المدرسيّ الجزائريّ . نصّ طارق بن زياد نموذجًا

Conquest of Andalusia in the memory of the Algerian scholastic text - the text of Tariq ibn Ziyad as an example

د.نورية بن عدي*

المركز الجامعي مغنية– تلمسان،

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامهما في المغرب العربي

benaddinouria@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02 القبول:2023/04/20 النشر: 2023/05/31

ملخص:

تنطلق هذه الدراسة من محاولة تقديم قراءة تحليلية فنية للنصّ القرائي الجزائريّ الذي يتّخذ من الأندلس موضوعا له، وذلك من خلال مقاربة نص" طارق بن زياد" من كتاب القراءة للسنة الخامسة الابتدائية، في فترة الثمانينيات من القرن الماضي.

فبعد التساؤل عن واقع حضور المدونة الأندلسية في النص التعليمي الجزائري ، يسعى البحث نحو محاولة رصد الأبعاد الثقافية والتربوية لواقعة الفتح الإسلاميّ للعدوة الأندلسية على يد جيش طارق بن زياد ، انطلاقا من النصّ المختار؛ حيث يتم بناء تصورات الطفل عن معركة الفتح وفق الحمولة اللغوية، والفكرية، والتاريخية للنص، بغية التأثير في توجهاته وتصوراته عن مجموع القيم الخالدة التي صنعت المجد الإسلامي في الأندلس .

ويتم الوقوف بعد استحضار نصّ واقعة الفتح واستقراء حمولته الفنية والتوثيقية ، عند أهمية احتفاء النص القرائي العربي بالموروث الأندلسي في نصوصه القرائية المعدّة لمختلف الفئات العمرية، لما يحمله هذا الموضوع من قيم تربوية، وحضارية ،وجمالية ، وتاريخية لها بالغ الأثر في حاضر الطفل المتمدرس وبناء تصوراته المستقبلية عن هُويته، ووطنه، وانتمائه الحضاري .

الكلمات المفتاحية: كتاب مدرسي؛ نص قرائي ؛ مدونة أندلسية؛ قيم تربوية ؛ قيم جمالية ؛ انتماء حضاري .

Abstract

This study starts from an attempt to provide an analytical reading of the Algerian reading text, which takes Andalusia as its subject, by approaching the text of "Tariq I bin Ziyad" from the reading book for the fifth year of primary school, in the period extending from the late eighties to the early nineties of the century Past.

The study also seeks to examine the reality of the presence of Andalusia in the Algerian educational text on the one hand, and to monitor the cultural and educational dimensions of the Islamic conquest of the Andalusian enemy by the army of Tariq Ibin Ziyad, as depicted by the chosen text, on the other hand; Where the child's perceptions of the battle of conquest are built according to the linguistic, intellectual, historical and civilizational load of the text, in order to influence his orientations and perceptions of

the eternal values that made Islamic glory in Andalusia.
The importance of invoking the Arabic reading text of the Andalusian heritage in its reading texts prepared for various age groups, because of the educational, cultural, aesthetic and historical values that this topic holds, which have a great impact on the child's present and future perceptions of his identity, his homeland, and his cultural affiliation.

KeyWords: Schoolbook ; text reading ; Andalusian blog ; educational values ; aesthetic values ; cultural affiliation.

***د. نورية بن عدي**

المقدمة: إنّ أهميّة قطاع التربية والتعليم، في المجتمعات جميعها، بما يفرضه من رهانات وتحديات على المستويات كافة ، خصوصا الثقافية منها والإيديولوجية، لتجعل من الكتاب المدرسي باعتباره الأداة الأولى في المنظومة التربية ، من أولى اهتمامات البحث الأكاديمي وأبرز تطلعاته العلمية والفكرية، خاصّة أمام ما يلحظه الناظر من مظاهر الميل المتزايد للتلميذ إلى الوسائط التكنولوجية المتاحة، وما توفّره من نصوص قرائية و كتب للدعم أو الترفيه لا تأخذ في معظمها بجميع المعايير اللازمة لاختيار النّصوص المدرسية والتعليمية، وذلك بغضّ النظر عن بالغ أثرها على المستوى المعرفي والسلوكيّ للتلميذ، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالأبعاد الأخلاقية أو المبادئ الإيديولوجية المرتبطة بالثوابت الوطنية .

وليس بخاف والأمر كذلك، ما يواجهه هذا القطاع في الجزائر من تحديات على مستوى المنظومة التربوية عموما، والكتاب المدرسي على وجه الخصوص ، وذلك باعتبار ما تؤديه المدرسة من أدوار اجتماعية محورية تجعلها تحلّ محلّ الأسرة في مهمّة تربية الأبناء وتكوينهم عقليا ،واجتماعيا، ونفسيا ... بحسب الفلسفة التربوية لهذا المجتمع أوذاك.

لذلك مايلبث الباحث المقبل على هذا الحقل أن يتساءل حول أهمية اختيار النصوص القرائية المدرسية التي يمكن أن تلبي الحاجات المعرفية للتلميذ في إطار التوجهات الفكرية والحضارية للمجتمع الجزائري ، وهو ما يحتّم علينا أن نقف عند مجمل المعايير المتبعة عالميا ومحليا في انتقاء النصوص المدرسية التي توفّر المعارف الأولية المطلوبة لدى الطفل المتمدرس ، بالإضافة إلى دورها في ترسيخ مبدأ الانتماء الحضاري بأبعاده الهوياتية ذات الأثر البالغ في بناء تصورات القارئ حول ذاته الحضارية .

وعليه ، فإنّ البحث الجادّ في سبل توفير النصوص القرائية المؤدية لأدوارها المعرفية والتربوية ، يجب أن ينطلق من فكرة حضور النصوص التاريخية ذات الحمولة اللغوية والحضارية الكفيلة بصقل توجهات الطفل وشحذ همته، خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بقصص الأمجاد والبطولات العربية الإسلامية التي من شأنها أن تُتّخذ نموذجا يقتدى به لدى القارئ الصغير . ولعلّ ذلك ماسنحاول رصده من خلال استحضار خطبة طارق بن زياد في واقعة فتح الأندلس من كتاب القراءة الجزائري في فترة الثمانينيات من القرن الماضي ، ومقاربتها دراسة وتحليلا واستنتاجا.

I. الأدوار الاجتماعية والثقافية للمدرسة :

إنّ المدرسة باعتبارها مجتمعا للمعرفة ، لا يجب أن تعيش بمنأى عن التطورات الراهنة من مدّ عولمي، و انفجار معلوماتي وانفتاح ثقافي؛ حيث تعدّ المؤسسات التعليمية قوة دافعة للمجتمع في سبيل تنوير العقول، والحفاظ على هوية الأمم، وتحقيق النهضة الاقتصادية وإحراز المكاسب الاجتماعية والثقافية (العجمي، 2017، صفحة 17). كما لا يجب أيضا أن تتخلف عن دورها الريادي في مواجهة حركة التربية المعاصرة القائمة على مبادئ العولمة الثقافية والتربوية الساعية إلى تنميط المجتمعات وإفراغها من خصوصياتها الدينية والثقافية والحضارية .

وقد أدت المدرسة الجزائرية على مرّ الأجيال دورا مهما في ترسيخ معالم الهوية الوطنية والانتماء الحضاري للمجتمع الجزائري ، خصوصا بعد فترة ما بعد الاستقلال التي واجهت فيها تحديات الاستقلال عن المناهج الموروثة من المدرسة الفرنسية، وما انطوت عليه من تناقضات بخصوص ماضي الشخصية الجزائرية وحاضرها ، وكان على المناهج التربوية الوطنية آنذاك، أن" تحدث ثورة حقيقية في نظام التعليم قصد إقامة مدرسة جزائرية ، وبالتالي التخلّص من المدرسة الفرنسية ذات المحتوى التربوي الغريب عنا (ماجد، 1997، صفحة 448) "

وعلى هذا الأساس،استلهمت السياسة التربوية الجزائرية عناصرها من التاريخ الجزائري وجنّدت ثلة من المتخصصين في مجال إعداد الكتب المدرسية ترسيخا لدور المدرسة في بناء مجتمع المعرفة، وذلك وفق الخصوصيات المحلية ببعدها الثلاثي :العربي؛ بحضارته وثقافته ولغته ، والأمازيغي؛ بثقافته وتراثه، والإسلامي؛ بحضارته وعقيدته (للتربية، 1997، صفحة 20).

وقد عرفت فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي ، بروزا واضحا للفكر التربوي المبني على ترسيخ مبادئ الهوية الوطنية؛ من جزأرة للمضامين وتعريب للغة وتكييف للمناهج وفق خصوصيات المجتمع الجزائري اللغوية والتاريخية، وتطلعاته الثقافية والتنموية. (رئاسي، 1976) فشهدت تلكم الحقبة انتعاشا واضحا في صناعة

الكتاب المدرسي وفق معايير تأخذ بعين الاعتبار الجوانب اللسانية، والثقافية، والجمالية، والقيمية والحضارية للمجتمع الجزائري .

II. خصائص الكتاب المدرسي ووظائفه:

إنّ بين دفتي كل كتاب إعلام كامل يؤدي وظائفه العامة من حيث التثقيف، والتوجيه واكتساب المعارف والقيم، وتكوين الرصيد المعرفي الذي يتناسب مع مرحلته العمرية، بما يحتويه من صور وأفكار تختلف من تخصص لآخر سواء كانت أدبية أم اجتماعية أم علمية . ويعدّ الكتاب عموما، وسيلة للتثقيف ومستودعاً للمعرفة باعتباره " وسيلة إعلام فاعلة تقدم للقارئ البراهين والحجج في صفحات كثيرة ومتكاملة ومدروسة بدقة وعناية " (زيادي، 2000، صفحة 14)

أمّا الكتاب المدرسي في خصوصه ، فلا ينأى عن كونه أداة تواصل وإعلام تحمل رسالة فكرية بين المرِسل الذي يتمثل في المؤلف المؤهّل من قبل أوصياء التربية ، والمستقبِل المتجسّد في التلميذ، والمستعمِل المتمِثل في المعلّم ، فبالإضافة إلى أهدافه التعليمية وكونه مصمَّما ومخطّطا له من طرف مجموعة من المتخصّصين، يكتسي الكتاب المدرسيّ طابع الديداكتيكية لكونه مؤلفا منظّما، ومطبوعا موجَّها للاستعمال داخل بيئات التعلم والتكوين (منصف، 2007، صفحة 236) وذلك لأنّه وثيقة تربوية في شكل وعاء للخبرات يحتوي مادة تعليمية تعتبر مرجعا أساسا يستقي منه المتعلمون معلوماتهم في شكل لفظي وبصري .

لذلك، تختصّ الكتب المدرسية سواء في الوطن العربي أم عند الغرب ، بمجموعة من الخصائص التي تجعلها مواكبة للعصر في إطار من العلمية ، والواقعية ، والشمولية والحداثة مع الاحتفاظ بخاصية الحفاظ على الهوية الوطنية والانتماء العام ،إضافة إلى ما يمليه واقع الصّناعة الكتبية من حسن إخراج وتصميم وملاءمة للمضامين ، وسلامة للغة ومناسبتها للفئة العمرية المستقبِلة .

وفي الواقع ، يعيش قطاع الكتاب المدرسي تحولات عميقة تبعا للنشاط الفكري الخاضع لمجموعة من المعطيات والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذلك الانفتاحات الراهنة للمجتمع على العالم الخارجي، لذلك تتزايد أهميّته وتعدّد وظائفه التي نذكر منها كونه:

- أداة معرفية في التعلم الذاتي خارج المدرسة والتعلم الصفّي بتوجيه من المعلم.
- تثقيف التلميذ وتعليمه مهارة القراءة والكتابة وتنشيط عملياته الذهنية .
- الحامل للهوية الوطنية والدينية والحضارية .

- المروّج للثقافة المجتمعية المبنية على مبادئ المواطنة والانتماء الحضاري.
- أداة للتنشئة والتكوين المجتمعي والدمج الثقافي.

–وسيلة لتعديل سلوك المتعلم واكسابه مجموعة من القدرات والمهارات والاستعدادات النفسية والاجتماعية والمهنية المختلفة .

–تلبية الحاجات المعرفية والتربوية والتعليمية للتلميذ. (الجيلالي، 2014، صفحة 199)

لذلك كلّه، تكتسي الكتب المدرسية باعتبارها موضوع الساعة، قدسية خاصّة لكونها صناعة حيوية تقوم على توازن حساس بين المتطلبات الاقتصادية والضرورات الثقافية ، تقف في مواجهة ممارسات قرائية وأشكال من المتاجرة والمنافسة بين الكتاب المدرسي والوسائط الإلكترونية .

III. أنماط التكفل بالكتاب المدرسي تبدأ من جودة اختيار النصوص :

إنّ المراد بالنصّ لغة هو رفع الشيء وإظهاره (منظور، 2010، صفحة 97)،في حين يعرّف في حقل الاصطلاح بكونه وحدة كبرى شاملة تتكوّن من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحوية ، وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلالية (أبوزيد، 2010، صفحة 16). ومن هنا تتباين تعريفات النصّ التعليمي كمصطلح تابع للحقل التعليمي تتجاذبه مجموعة من الاتجاهات الفكرية والفلسفية ، وإن كان يعرَّف من الناحية البيداغوجية بكونه " وحدة تعليمية تمثّل محورا تلتقي فيه المعارف اللغوية المتعلقة بالنحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم أخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ ، بالإضافة إلى المعطيات المعرفية المتميزة التي صارت تقدّمها علوم اللسان في دراسة النصوص وما في ذلك من فائدة جلية تعود بالنفع على العملية التعليمية التعلمية " (ابرير، 2007، صفحة 129).

بناء على مفهومه، يعتبر النصّ التعليميّ من أولويات اهتمامات الأوصياء على الحقل التربوي باعتباره انعكاسا للثقافة المجتمعية والهوية الوطنية في قالب لغوي متسّق ومنظم . لذلك ليس من السهل اختيار النصوص المناسبة الملبية لحاجات المتعلّمين على اختلاف فئاتهم العمرية وخصائصهم النمائية، ويتطلّب ذلك عادة تكاثف جهود الباحثين اللغويين ، والتربويين ، والنفسانيين ، والاجتماعيين ، وذلك بالنظر إلى ما تؤديه هذه النصوص من مهام تعليمية وتربوية وتثقيفية تتباين بحسب طبيعة المادة العلمية والفئة المستقبِلة لها.

ومن الملاحظ ، أن تعليمية اللغة العربية تقوم على قسط وافر من العناية والاهتمام بمعايير اختيار النصوص الأدبية التي تلبّي حاجة التلميذ إلى مختلف الأنشطة التي تنمّي مهاراته اللغوية، وذلك في ضوء مايلي :

- معيار الملاءمة لمستوى المتعلم : ويقوم على ضرورة تبنّي النصوص التي تراعي مستوى المتعلّم من حيث خصائصه النمائية النفسية، وبخاصة منها العقلية واللغوية، وكذا مراعاة عامل الفروق الفردية بين المتعلمين في الفئة العمرية الواحدة .
- معيار الصدق: ويرتبط هذا المعيار بمدى تحقيق تعلّم فعّال لدى المتعلم على المستويين التعليمي والسلوكي؛ حيث يتحقّق لديه رصيد لغوي ومعرفي يمكنه من الانتقال السّلس إلى المراحل التعليمية اللاحقة ، كما تتجسّد فيه مجموعة من القيم الأخلاقية التي تضمن انخراطه السليم في المجتمع .
- معيار اهتمامات المتعلّم: ويعني ذلك أن ترتبط هذه النصوص بحياة المتعلّم وتثير اهتماماته وترفع ذافعيته إلى التعلم .
- معيار القابلية للتعلم: وهو مبني على حتمية احترام مبدأ التفاوت في مستوى المتعلمين أثناء عملية انتقاء النصّ المدرسيّ .
- معيار العالمية: ويقتضي هذا المعيار أن تتضمّن النصوص المختارة مواضيع ومشكلات وطنية، وإقليمية ، وعالمية من شأنها أن توسّع الآفاق المعرفية للمتعلمين .
- معيار الزمن: وهو يقوم على مبدأ تخصيص الوقت الكافي لتحليل النصّ الأدبي، ومناقشته، وإعادة صياغته، ودراسة مختلف ظواهره اللغوية والبلاغية . (حوش، 2018، صفحة 41)

ونحن إذا نظرنا إلى واقع النصوص في الكتاب المدرسي الجزائري من منظور نفسي ، تتراءى لكل واحد منا علاقته الخاصة بالكتب التي رافقته طوال فترة تمدرسه ، خاصّة تلك التي تنتمي إلى المرحلة الابتدائية، ولعلّ هذا ما شكّل لدينا باعثا ذاتيا لاختيار كتاب القراءة للسنة الخامسة من المرحلة الابتدائية في فترة الثمانينيات من القرن الماضي عينة لدراستنا ، وفضاء معرفيا لرصد طبيعة النصوص التي اشتمل عليها .

IV. مقاربة وصفية لمضامين كتاب القراءة للسنة الخامسة الابتدائية لجيل الثمانينيات:

صدر كتاب القراءة للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي في فترة الثمانينيات عن وزارة التربية الوطنية ، وأشرف عليه حمزة جاري والعربي مراد، وشارك في إعداده مجموعة من المؤلفين هم: صلاح الدين الشريف، بن يوسف عليان ، عبد الجليل الجلاصي، بوجمعة مرغيت، فهيم أبو حجازي وإبراهيم مخلوفي. وهو يشتمل على مجموعة من الصور التعليمية التي تتناسب مع المواضيع القرائية ، منها ما هو مرسوم لتنمية الحسّ الإدراكي البصري للتلميذ وتعميق فهمه ومنها ما هو في شكل صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود كصورة مدينة غرداية وصورة مقام الشهيد والكعبة المشرفة. وقد تمّ تخصيص لون واحد لكل وحدة تعليمية ؛ حيث خصّص اللون الأحمر المائل إلى

البرتقالي لمعظم النصوص ذات الطابع الحكائي السّردي ؛كنصّ " المثابرة أساس النجاح ، ونصّ "إرضاء الناس غاية لا تدرك " ونصّ " السندباد البحري" ونص " المثابرة أساس النجاح" وذلك لمناسبة هذا اللون لجذب اهتمام القارئ الصغير للاسترسال في التفكير واستحضار أكبر قد من الخيالات والتصورات التي تحفّز فيه بواعث التعبير والإفصاح عن مفهوماته وتخيلاته حول النص .

اشتملت تقدمة الكتاب على عرض لأهم أهدافه من حيث ثراؤه بما ينمّي ثقافة التلاميذ، ويوسّع آفاقهم، ويُهذّب أذواقهم، وقد روعيت فيه سهولة العرض، وتنوّع الأغراض والأساليب ، وتميّزت بأنّها:

- تتماشى مع أهداف المجتمع وطموحاته؛ فمنها ما يتّصل بالوطن وأمجاده، ومنها ما يتصل بالتطور ومظاهر التنمية، ومنها ما يتّصل بالتراث والأصالة..
- تستجيب لاهتمامات التلميذ وميوله وتلائم مستواه العقلي واللغوي
- تعبّر عن أهداف المدرسة الأساسية التي تعنى بتنمية شخصية التلميذ وغرس حبّ العمل في نفسه، وتزويده بالمهارات الضرورية للحياة (التعليم، بلا تاريخ ، صفحة أ)يحتوي الكتاب على مائة نصّ قرائي، موزعّ على سبع وعشرين وحدة ، تتضمن كلّ وحدة أربعة نصوص ؛ حيث ينتمي نصّ " طارق بن زياد" إلى وحدة بطولات العرب المسلمين وأمجادهم التي تفتتح بنصّ " بين القدس ونابلس " ونصّ " حسن التخلص " وبطلاه أبو الوليد وخديجة وهما فدائيان فلسطينيان كابدا قسوة المحتل الإسرائيلي ، فاستشهد أبو الوليد ونجت خديجة بذهائها وحسن تدبيرها (التعليم، بلا تاريخ ، صفحة 102)أمّا النصّ الثالث فهو" الفارس الملثّم" وقصته من أجمل ما يمكن أن تسمعه عن بطولات المرأة العربية المسلمة في مُؤازرة أخيها المسلم في ساعات الشدّة والبأس، وهي تروي قصّة الفارسة الملثّمة " خولة بنت الأزور أخت "ضرار بن الأزور" أحد شهداء معارك فتح بلاد الشام، وكيف أُعجب القائد المسلم "خالد بن الوليد" بأدائها في المعركة بعد استشهاد أخيها ، واختراقها صفوف العدوّ بوجهها الملثم وسيفها البتار الذي كان يمرق صفوف العدوّ وينزل الرعب في قلوبهم . (التعليم، بلا تاريخ ، صفحة 108)

وبالنَّفَس البطوليّ ذاته تكتمل الوحدة التعليمية بقصة بطولية أخرى من التاريخ العربي الإسلامي؛ بطلها " طارق بن زياد " وهو عنوان النصّ التعليمي الذي اخترناه نموذجا لإحياء الحضور الأندلسي في ذاكرة النّص المدرسي الجزائري .

1. النصّ :

"قبل أن يُرسل الفجر خُيوطه الأولى ؛ كان القائد طارقُ بن زيادٍ ، والجنودُ المسلمون البواسلُ؛ على أتمِّ الاستعداد لفتح الأندلسِ. أمر القائد بالانطلاق فامتطى الجنودُ السّفُنَ ، وأقلعوا، وكلّهم أمل في فتح هذه البلاد ، لنشر الإسلام بين أهلها، والقضاء على الظّلم والفسادِ ؛ وإقامة العدلِ والعُمرانِ . وما إن أسفرَ الصّبحُ ، حتّى كانَ جنودُ الله يطؤون أرضَ الأندلسِ، فاعتَرَضَ لهم جيش جرّار بقيادة الطاغيةِ لُذريق، وتلاحَقَت كتائِبُهُ، حتّى غصّ بها السّهل الممتدُّ على الشاطئ.

بدأ طارق بتنفيذ خطّته الحربية الجريئة؛ إذ أمر بإحراقِ السّفُنِ؛ ليؤكّدَ لجُنوده أنّ المعركة معركة نصرٍ أو استشهادٍ، وليثبت للعدوّ تصميم المسلمين على فتح الأندلس. ثم امتطى جواده ، وجرَّد حُسامه ، وتفقَّد الفرسانَ ونظَّم صفوف جيشه ، ثم قال: " أيُّها الناَس ، أين المفرُّ؟ البحر من ورائكم والعدوَّ أمامكم ،وليسَ لكُم واللهِ إلاّ الصّدقُ والصَّبرُ، وقد استَقبلكم العدوّ بجيشه وأسلحته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفُكم .. وإنّي حاملٌ على طاغية القوم لُذريقَ ، فقاتِلُه إن شاء اللهُ ، فاحملوا معي " فازدادت حماسة الجنود وأخذوا يُردّدون : الله أكبر الله أكبر كلُّنا فِدى الإسلام .

ثمَّ تَلاحَمَ الجيشانِ، ونَشِبت بينَهما مَعركةٌ طاحنَة، اختلطت فيها قَعقَعَة السُّيوفِ بصَهيلِ الخيلِ وصُراخِ المقاتِلينَ ، واستَمرّت المعركةُ يومًا كاملاً، قاتلَ المسلمون خلالها بشجاعة ، وصَبرٍ وثباتٍ حتى قُتلَ الملك الظّالمُ- لذريق-قبلَ غروبِ الشّمس. انتصر المسلمون في جهادهم، بقيادة طارق بن زياد ، واستمرّوا يحققون الانتصارات تلو الأخرى ، حتّى تمَّ فتحُ الأندلس". (التعليم، بلا تاريخ ، صفحة 110)

2. محاور نص " طارق بن زياد ":

ينقسم النصّ كما يّضح أعلاه، إلى محاور ثلاثة ؛ حيث يّفتتح بمشهد تجهيز طارق بن زياد لجيشه وكلَّهم عزمٌ على فتح بلاد الأندلس في سبيل نشر الإسلام وإعلاء رايته، ثم تليه الفقرة الثانية المتضمّنة لمطلع خطبة طارق بن زياد في جنده حماسة وتحفيزا لهم على مقاتلة لذريق وجنده على وفرة عُدّتهم وعتادهم، ويُختتمّ النصّ بمشهد صهيل الخيل وقعقعة السّيوف بمقتل الطاغية لذريق .ويسدل الستار على واقعة جبل طارق بذكر توالي انتصارات المسلمين إلى تمام فتح الأندلس .

وقد أُتْبِعَ النصَ بشروح للألفاظ ، وذُيّلَ بأسئلة تساعد على الإلمام بالمعاني، وتعميق الفهم ، وتدريب التلميذ على التعبير اللغويّ السليم ، وهي :

- كيف تمّ فتحُ الأندلس؟
- كيف كان شعور المسلمين وهم يُبحرون نحو إسبانيا؟
- ماذا فعل طرق بن زياد قبل نشوب المعركة؟
- ما كان قصده من إحراق السّفن؟
- كيف تصدّى لذريق وجيوشه؟
- لمَ خطب طارق في جنده؟
- أُذكُر العبارات الدّالة على ضراوة المعركة .
- ما العبارات الدالة على حماسة المسلمين؟ (التعليم، بلا تاريخ ، صفحة 111)

في حقيقة الأمر ، إن الإجابة عن مجمل هذه الأسئلة المقصودة، لَيَضعنا أمام مجموعة من المعارف التاريخية والحضارية والقيم الأخلاقية والحضارية ، التي يستحضرها التلميذ فتُكسِبهُ كمّا وفيرا من المعلومات التاريخية حول واقعة فتح الأندلس. وذلك في قالب بطوليّ يضع طارق بن زياد في مقام القادة المسلمين الفاتحين، فتتراءى شخصيته من وراء ألفاظ النص وعباراته كقائد عسكريّ حازم شجاع يبثّ روح الحماسة بين جنده ، ويحملهم على القتال سعيا نحو الفتح أو الشهادة ، بعد أن قام بحرق السفن الحربية ، ووعد بمقاتلة الطاغية لذريق في غير ريب ولا تردّد. كما ينقل النَّصّ سواء من خلال محاوره ومضامينمه أو من خلال الإجابة عن أسئلته صورة القائد الخطيب طارق بن زياد ، وهو يلقي خطبته الشهيرة التي ظلت تتردّد على ألسنتنا جيلا بعد جيل " ...أين المفرّ ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ..."

3. وظائف النصّ وأبعاده التربوية والحضارية :

و ممّا يلفت الانتباه في هذا النصّ أنّه يضع القارئ الصّغير والكبير معا ، أمام جملة من المشاهد البطولية والتصورات لشخص طارق بن زياد من جهة ، ومجربات معركة الفتح من جهة أخرى، خصوصا أمام خلوّ هذا النصّ من أيِّ رسم أو صورة تعليمية بخلاف النصوص السابقة له والمنتمية إلى الوحدة ذاتها . كما يفتح الأفق المعرفي لدى

التلميذ على معارف تاريخية خاصة بحقبة الفتح وهي القرن الأول بعد الهجرة النبوية ، أو بمكان الفتح الذي عاد ليسمى إسبانيا بعد كان يعرف بالأندلس.

وبغضّ النظر عما قد يتعلّمه التلميذ من معارف حول نكبة لأندلس و سرعة ضياعها من بين أيدي المسلمين بعد قرون قليلة من الفتح ، إلاّ أنّ حصر تركيز انتباه التلميذ على واقعة الفتح بأبعادها البطولية والحماسية والحضارية ، هو أمر منظّم مخطّط له ، يندرج في اعتقادنا ضمن حسن انتقاء النصوص المؤدية لأدوار معرفية وثقافية، ناهيك عن دورها في إثراء الرصيد المعجمي لما حفل به هذا النصّ من مفردات وألفاظ فخمة ومعبرّة ، مثل : المفرّ – يطؤون – اعترض لهم –كتائب– جرّد حسامه– قعقعة السيوف ....

ونحن إن شئنا ، من خلال موقعنا من هذه الدراسة ، أن نوسّع أفق البحث في بعض المحاور المتعلّقة بالأصول البربرية للقائد طارق بن زياد ، أو بمدى صحة نسبة الخطبة المذكورة إليه، أو اعتبار ترجمتها من لغتها الأصلية إلى اللغة العربية في عصور لاحقة ، سرعان ما سنجد أنفسنا أمام جملة من التساؤلات حول السجلّ الثقافي للمغرب الإسلامي قبيل واقعة فتح الأندلس ؛ حيث تطرح مجموعة من التساؤلات حول مدى ملاءمة البيئة الأمازيغية التي أنجبت طارق بن زياد لصنع خطيب متكامل يستطيع أن يلقي خطبة على هذا القدر من البلاغة والبيان؟

فالمتصفح للسجل الثقافي في المغرب الإسلامي سيقف أمام مساحة واسعة من التنوع والاختلاف ، تبتدئ بسيادة اللغة الأمازيغية البربرية التي تقتصر على كونها لغة التخاطب اليومي دونما استعمالها كلغة للتدوين والتسجيل إذ اقتصرت آثار تلك الحقبة الزمنية من تاريخ البربر على بعض الرسومات في الكهوف والمغارات حول الصيد والحرب والحرية (جوليان، 2011، صفحة 85)وكل ما وصلنا منها لا ينمّ عن حركة ثقافية منتعشة، خاصة في عهد موسى بن نصير وعقبة بن نافع ، وهذا ما يستند إليه الباحثون في شكّهم حول معظم ما وصلنا من نتاج هذه الفترة، خاصة إذا ما تعلق الأمر بخطب القادة والفاتحين البربر ، وذلك في ظل ما ذكرناه من تعصب البربر لثقافتهم وأعرافهم فضلا عن الصراعات الطويلة بينهم وبين العرب . (جوليان، 2011، صفحة 15)

فقد قاومت الكاهنة وكسيلة (جوليان، 2011، صفحة 26) الفتح الإسلامي لاعتقادهم أن العرب كغيرهم من الغزاة الذين يطمعون في استلاب الأملاك واستغلال خيرات البلاد، ولم يتمكنوا من معرفة رسالة العرب إلا بعد زمن طويل من الحروب والمطاردة، كما ظلوا متمسكين بتقاليدهم وأعرافهم حتى بعد تبني الفكر الإسلامي.

من جهة أخرى ، فقد أُحيط اسم القائد طارق بن زياد بهالات من الأقاصيص والخيالات الشعبية، باعتباره بطل واقعة فتح الأندلس ، وكذلك قصة تسمية قطعة إستراتيجية من إسبانيا باسمه، كما ارتبط اسمه بمعركة

حاسمة تعتبر نقطة تحول في التاريخ العسكري للعرب ضد لذريق (رودريك)ملك طليطلة عاصمة إسبانيا، انتهت بدخول المسلمين إلى أوروبا.

كما أُحيطت خطبته الشّهيرة بهالة من الشكوك والتساؤلات التي سنشير إلى البعض منها بعد إيراد نصّ الخطبة من كتاب نفح الطيب من غضن الأندلس الرّطيب، وسنقتصر لطولها،على ذكر بعض المقاطع منها ، ومطلعها : " أيّها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصّدق والصّبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضّت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فلقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكنة إذا سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنّي لم أحذّركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطّة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلمو أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ...وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ،الرافلات في الدرّ والمرجان،والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان .....واعلموا أني أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وإنّي عند ملتقى الجمعين ، حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، والتفّوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنّهم بعده يُخذلون (المقري، 1968، صفحة 240)وعلى الرغم مما تكتسيه هذه الخطبة من قيمة أدبية وأخرى عسكرية إلاّ أنّ قدرا هائلا من الشكوك ظل يُحاكُ حول صحّة نسبتها إلى قائلها البربري حديث العهد بالعروبة والإسلام خاصة إذا علمنا، أنّ هذه الخطبة قد قيلت في وقت مبكر من العهد الأموي ، بتاريخ 92هـ، وهو عهد لم تك قد اشتهرت فيه الزخارف اللفظية والأسجاع على النّحو الوارد في الخطبة ، ناهيك عن التساؤل عن كيفية إجادة طارق بن زياد للغة العربية على ذلك النحو البليغ في فترة قصيرة كان فيها مولى لموسى بن نصير الذي ولّي على المغرب سنة89 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك. فكيف تكفي سنوات ثلاث لتكوين خطيب يؤلف مثل هذا الكلام العربيّ الفصيح البليغ ؟ ناهيك عما حفل به نصّ الخطبة من ترغيب في حسان الأندلس، وخيراتها، ونسائها وأغلب الظنّ أن جيوش العرب كانت تغزو لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الحق.

الخاتمة:

وبغض النظر عن مدى صحة نسبة الخطبة إلى قائلها، أو إمكانية ترجمتها من اللغة الأمازيغية إلى العربية الفصحى في عصور لاحقة ، فإنّ القيمة التاريخية لهذه الخطبة في عمومها ، وواقعة فتح الأندلس في خصوصها ، ستظلّ تكتسي أبعادا تاريخية وحضارية لا تُنكر . وهي لأجل ذلك وغيره؛ تستحق أن تدرّس لأبناء هذه الأمّة جيلا بعد جيل، لأنّ الدّرس الذي يتّخذُ من الأندلس موضوعا له ، سواء تعلق بماضيها المجيد وعصورها الزاهية، أو بنكبتها التاريخية وزوال ملكها ؛ هو درس تُستَلهم منه آلاف العبر والدروس، وتشحذُ به همم النشء للنهوض بهذه الأمة بالأسباب نفسها التي أخذ بها السّلف من القادة الفاتحين والعلماء المصلحين في قيادة الركب الحضاريّ في عصور مضت .

وعليه، فإنّ حضور المدونات التاريخية ذات اللأبعاد الأدبية والتاريخية في الكتاب المدرسي الجزائري في فترة الثمانينيات من القرن الماضي ، سواء ما تعلق بأدب الثورة الجزائرية ، أو أدب البطولات والمعارك الإسلامية قد كان مطلبا رئيسا ومعيارا مهما في انتقاء النصوص القرائية المدرسية الجزائرية وفاء للمنحى الحضاري والسياسي الذي سطرته الدولة الجزائرية آنداك، وتماشيا مع روح القومية العربية والانتماء الحضاري الإسلامي .

قائمة المراجع:

1. تأثير العولمة على التعليم في الوطن العربي ، لبنى بنت حسين العجمي ، مقال منشور بالمجلة الإلكترونية : مقالات وأبحاث ودراسات اجتماعية في المجتمعات الجزائرية والعربية arabthought.org
2. واقع التعليم في الجزائر 1962- 1987 ، حسنين فلاح ماجد ، ع4ن ص 448 ، مقتطف من خطاب الرئيس هواري بومدين .
3. المبادئ العامة للسياسة التربوية الجديدة وإصلاح التعليم الأساسي، المجلس الأعلى للتربية ، ديسمبر 1997 المادة 2 من الأمر الرئاسي رقم 76/35 المؤرخ في 1976، المبني على رسالة النظام التربوي في نطاق القيم العربية الإسلامية ،وتنشئة الأجيال على حبّ الوطن
4. أثر وسائل الإعلام على الطفل، أحمد محمود زيادي، عمان ، دار الأهلية للنشر والتوزيع ، ط2، 2000.
5. رهانات البيداغوجيا المعاصرة ، عبد الحق منصف ، القاهرة ، ط2،2007

6. أهمية الكتاب المدرسي في العملية التربوية ، حسان الجيلالي ، لوحيدي فوزي ، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية ، ع09، ديسمبر 2014.
7. لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، مج7.
8. نحو النصّ ، إطار نظري ودراسات تطبيقية ،عثمان أبو زنيد ،عالم الكتب الحديث ، 2010.
9. تعليمية النصوص بين النظرية والتطبيق، بشير إبرير، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1.
10. معايير اختيار النصّ التعليمي ، نماذج من نصوص السنة الثانية متوسط الجيل الثاني ، حوش جميلة ، مجلة لغة كلام ، مختبر اللغة والتواصل، المركز الجامعي غيليزان / الجزائر ، مج 04، ع02-أكتوبر 2018.
11. مقدمة كتاب السنة الخامسة من التعليم الابتدائي لسنوات الثمانينات
12. تاريخ إفريقيا الشمالية ، شارل أندري جوليان ، تر :محمد مزالي –البشير بن سلامة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2011، ج2.
13. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري ، تح : إحسان عباس ، بيروت 1388هـ، ج1.